

علم المستقبلية وإشكالية النزعة الدينية

دكتور عبد القادر بخوش

أستاذ محاضر ، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة

ملخص

مع الثورة العلمية الحديثة ازدادت الرغبة في كشف أسرار المستقبل على جميع الأصعدة المعرفية، وفي المجالات الحديثة. الأمر الذي حفز الباحثين على إرساء مناهج لدراسة المستقبل، وتصنيفه داخل إطار العلوم. واصطلح على تسميته "علم المستقبلية"؛ وهو العلم الذي يبحث إشكالية أثر النزعة الدينية في توجيه البحوث المستقبلية... .

Abstract

By the scientific revolution, the desire to discover the future secrets has increased upon all levels of knowledge among modern fields, this has strongly impelled researchers to transmit their study results about the future and to classify it within the peaceful frame. The development of futuristicology had been accepted in order to include the research on one Important problem about the effect religious tendency to direct these future studies... .

مدخل إلى علم المستقبلية

إذا كان المستقبل هو كشف الحجب عما قد يتجلى للإنسان من معرفة يبي من خلالها استراتيجية لمواجهة المستجدات، فإن معرفة كهذه تصبو إلى اكتشاف الآفاق المستقبلية خليفة بأن تبعث إلينا ولجديرة أن تكون محور بحوث معمقة وتفكير جاد. وإذا كان التاريخ الإنساني لم يخل من الحديث عن الرغبة الملحة للإنسان في استشراف الآفاق المستقبلية وتطلعه الدائم لمعرفة أسرار الغد، إلا أن تغلغل وتسلسل الأفكار البدائية وما تحمله من أساطير قد عكرت الأجواء وأضحت أية معرفة من هذا القبيل ضرباً من الأساطير والتخمينات.

ومع الثورة العلمية الحديثة ازدادت الرغبة في كشف أسرار المستقبل على جميع الأصعدة المعرفية وفي شتى المجالات العلمية الحديثة مما حفز ذلك الباحثين على إرساء مناهج علمية لدراسة المستقبل، وتصنيفه بذلك داخل إطار العلوم واصطلاح على تسميته علم المستقبلية.

ويأتي في طليعة هؤلاء الأستاذ أنريه كورنان الذي يعد بحق مكتشف علم المستقبلية بلا منازع وذلك بالاشتراك مع فريق المركز الدولي للمستقبلية في الستينات بفرنسا، ولقد تولى تطبيقه فيما بعد إبان قيامه بالتدريس بالجامعة الأمريكية. تحصل على جائزة نوبل في الطب عام 1956 لأعماله الخاصة بدراسة عن داخل القلب فتتقلد منصب أستاذ شرفي بجامعة كولومبيا، وألف العديد من الكتب العلمية، والبحوث المتعلقة بأخلاقيات العلم وتطوره¹.

تمر الدراسة المستقبلية عبر مرحلتين: تحليل بالغ التوسع للنظام كما هو كائن في فترة معينة ومن منطلق هذا التحليل بناء صور للمستقبل تكون مرغوبة وممكنة على

أن نحاول أثناء دراسة النظام الراهن اكتشاف ما اسماه الأستاذ بيرماسيه الحقائق المستقبلية وبهذا توصف المستقبلية بالإستراتيجية طويلة المدى².
أفرزت البحوث المستقبلية حقيقتين مزعجتين: لهما بالغ الأثر على شتى أنواع العلوم والمعارف.

أولا: نهاية الثبات

يعيش العالم اليوم على مشارف الألفية الثالثة ويمر بمنعطف خطير لبروز ثورة معلوماتية وتقنية جبارة، تقتلع القيم والثوابت والمعطيات التاريخية. إن موجات التغيير تكتسح المجتمعات المتقدمة صناعيا بعنف متفاقم: وسرعة مذهلة وهي تحوي في طياتها أزمت عميقة يستعصي علاجها.

شاع عند العلماء أن العصر الذي نحياه يمثل ثورة صناعية ثانية، وهي عبارة تحاول تسليط الأضواء عن سرعة التغيير، ومع هذا فإن هذه العبارة غير دقيقة في بيان ماهية الواقع الذي نحياه لأن ما يحدث الآن هو بأي معيار أكبر وأعمق من الثورة الصناعية، وثمة وجهة نظر تلقي تأييدا كبيرا تؤكد أن التغيير المعاصر لا يمكن تعريفه

بأقل من أنه يمثل ثاني التحولات العظمى في تاريخ البشرية، وهو تحول أكبر من أن يقارب في ضخامته أولى هذه التحولات العظمى في مسار التاريخ. ونعني به انتقال الجنس البشري من البربرية إلى المدنية فالأستاذ هوبرت ريد فيلسوف الفنون يتحدث في دهشة عن انقلاب فكري رهيب، ويدعو إلى التنقيب في الآثار التاريخية لنعثر على شبيهه، ومن الممكن أن يكون أقرب تغييرات الماضي شبيها به هو ما حدث بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الجديد.

ويذكر الأستاذ **س كرام** بأننا في القرن العشرين نختتم فترة من تاريخ البشرية أطولها خمسة آلاف عام، إننا لسنا كما يقول **شبنجر** في وضع روما لدى قيام المسيحية في الغرب، إننا في وضع شبيه بإنسان ما قبل التاريخ عندما فتح عينيه منذ خمسة آلاف سنة على دنيا جديدة تماما³.

ومن أدق ما قيل في هذا الشأن كما عبر به رائد علم الاقتصاد **كينيث بولنج** عن وجهة نظره بأن وقتنا الحاضر يشكل نقطة تحول خطير في تاريخ الجنس البشري فإن الزمن الذي يقسم تاريخ الجنس البشري إلى قسمين متساويين، زمن ماثل في الذاكرة الحية، فالقرن الحالي يمثل خط الوسيط الذي يقسم تاريخ الجنس البشري، ويؤكد ذلك بقوله: لقد ولدت في منتصف التاريخ البشري لأن ما حدث منذ ولدت حتى الآن يماثل تقريبا كل ما حدث قبل أن أولد⁴.

ويحاول بعض علماء المستقبليات أن يضعوا الدين في مأزق لأنه لا يستطيع مقاومة هذا التغيير الذي يتعدى إلى القيم الدينية والأخلاق، وأن تغيير القيم يحدث الآن بأسرع مما حدث في أية فترة سابقة من التاريخ، وهذا ما يؤكد **ألفين توفلر** في قوله: "إن اللائيات والتغيير الدائم قد أصبح سمة غالبية لكل نظم القيم لدى الأفراد والجماعات وأنه أيا كان مضمون القيم التي ستصعد لتحل محل قيم عصر التصنيع فإنما ستكون أقصر عمرا وأسرع زوالا من قيم الماضي وليس أن يعود إلى حالة الثبات فيما يخص القيم بل على العكس فإننا نستطيع أن نتوقع في المستقبل تغييرا أسرع في القيم"⁵.

ثانيا: مرض المستقبل

كان للبحث الذي نشره عالم المستقبليات **ألفين توفلر** بالغ الأهمية في بيان ما يصيب الأفراد من تشتت واهيار عندما يفرض عليهم الكثير جدا من التغيير خلال

القصير جدا من الزمن ، ويعبر توفلر عن ذلك بقوله: " لقد استهواني هذا المفهوم حتى اقتنعت به فأنفقت السنوات الخمس التالية في ارتياد عشرات من الجامعات ومراكز البحث والمعامل والمؤسسات الحكومية وقرأت أعدادا لا حصر لها من المقالات والأوراق العلمية وقابلت مئات من الخبراء في مختلف النواحي المتفرعة على عملية التغيير التي تعالج مسائل السلوك وموضوعات المستقبل وعلماء حائزون على جائزة نوبل و أطباء ورجال أعمال وفلاسفة وقد أدلى كل من هؤلاء برأيه فيما يهمه من جوانب التغيير وكشف كل منهم عما يحسه من هواجس فيما يتصل بالتكيف ، ومخاوف تجاه المستقبل".

وينتهي توفلر دراسته بهذه النتيجة في قوله: " ولقد خرجت من هذه التجربة بحقيقة مزعجة للغاية اتضح أن صدمة المستقبل لم تعد ذلك الخطر البعيد المنتظر بل أصبحت بالفعل مرضا حادا تعاني منه أعدادا متزايدة كل يوم، مرض يتخذ حالة سيكولوجية يمكن أن نعبر عنها بمرض التغيير"6.

ولا نبالغ إذا قلنا إن تخوفا كبيرا من المستقبل من قبل الباحثين بلغ ذروته ، وقد عبر أحد المختصين عن هذه بقوله: "وإن كنت أنظر الأشياء بمنظار أسود فذلك لأنني لا ألمح علاقة واحدة واعدة تسمح لي بتصور إمكانية لأسلوب حياة مع المستقبل: التشوهات التكوينية والمخ الوراثي: الذرة، القتل بدافع الحمه، الأجهزة التعويضية والأعضاء المزروعة، والرجل السلعة أو الذي يتاجر فيه سوف يتحول إلى حثالة كالسلع التجارية تماما" ويضيف قائلا: " وأنه الآن لم يعد هناك أنبياء وفلاسفة ولا شعراء فقد دفنت الفنون والإنسانيات ويعطي الصورة أكثر وضوحا ، بحيث أنه بالإمكان أن تكون هناك تجارة للأذان البشرية فعلى مدى عشر سنوات سيصبح الأمر عاديا روتينيا وحرفة"7.

إن علماء اليوم يعثريهم إحساس بأن كل شيء يتغير بسرعة فائقة وهم في حيرة دائمة لعجزهم عن مواكبة آخر التطورات في مجالات اختصاصهم ، ولا يكاد يخلو مؤتمر أو ملتقى دون الإشارة لذلك التحدي الذي يمثلته التغيير، وصعوبة التحكم فيه فضلا عن التكيف معه.

ولا عجب إذ يعتقد البعض من الباحثين في المستقبلية أن البشرية لا مفر لها من الانتحار كما يذكر **شرجاف** ويحتل أن تعبر الانتحارات الجماعية عن صورة من الصور المستقبل و تعكس وجهها من الوجوه فيه.8

هذا إذا علمنا أن الطب النفسي عجز في علاج هذه الأزمات بل ذهب بعضهم إلى درجة تحميله المسؤولية وعدم تكيفه مع الأوضاع الجديدة ويذكر الأستاذ **شرجاف** بأن التحاليل النفسية خلقت بلا شك عددا من التعساء يزيد عما كان في الماضي، وأضحت الغالبية الأمريكية مجنونة نظرا لضالة عدد الذين يعدون أنفسهم طبيعيين.

وقد اتخذت الجامعات الأمريكية لمجابهة هذا المرض محللين نفسانيين، أضحى الطالب الذي لا يتردد على العيادة النفسية بالجامعة مرة ينظرون إليه بارتياح.9 وكان من المفروض أن يوظف الدين كمنقذ للإنسان من هذه الوضعية المزرية، ويحاول أن يجد حلا لكل هذه الأزمات وفق المنظور الديني.

بروز النزعة الدينية في الدراسات المستقبلية

وتبعاً لنا تقدم من عجز الدراسات النفسية في تقديم العلاج الشافي مقابل كل ذلك بدأت التفاسير الدينية تطفو على السطح وتطرح نفسها بقوة كبديل وملاذ لهذه المجتمعات التائهة ، تم كل ذلك وفق خطة مبرمجة شاملة اتحدت فيها العقائد

اليهودية والمسيحية، وشكلت بذلك منظومة كهنوتية تحت إسم الصهيونية المسيحية وأضحت أغلبية الكنائس الغربية تدين بها.

وبذلك لم يجد علماء الدراسات المستقبلية حرجا مثل **ميشيل سالون** أو العالم الكيميائي الشهير **تارجيف إروين** في ترديد مقولة العودة المظفرة الثانية للمسيح ، ونصوص من سفر الرؤيا من العهد القديم كمرجعية مهمة لمعرفة المستقبل . إن علاقة الدراسات المستقبلية والإيمان بهذه العقائد المسيحية واليهودية هي علاقة مباشرة ذلك أن الكنيسة الغربية تعلم مريديها أن من واجب الإنسان المؤمن أن يوظف كل إمكاناته وقدرته لتحقيق إرادة الله ، وإن الله يختار منه الناس من يؤهلهم ويمكنهم من القيام بهذا الجور المساعد وتعتقد هذه الكنيسة الغربية والتي تحاول أن

تفرض هذه العقيدة على جميع بأن للعودة الثانية للمسيح شروطا منها قيام دولة صهيون واستيلاء اليهود عليها¹⁰.

في إطار هذا الإيمان يأتي العمل على إقامة دولة إسرائيل و في إطار هذا الإيمان يأتي العمل، المشروع على تجميع اليهود في إسرائيل والتزاما بهذا تتعطل كل إمكانية السلام بين العرب واليهود وتتواصل حالة الحرب في المنطقة حتى يقع الانفجار الكبير الذي لا بد منه لتحقيق الإرادة الإلهية بالعودة الثانية للمسيح.

وتسبعا لذلك يمكن القول عند البعض أن هذا الكلام مجرد هلوسة دينية، ولكن عندما يكون من بين المؤمنين به إيمانا شديدا وصادقا شخصيات ذات وزن سياسي كبيرا فهو الكارثة بعينه.

ولعل أسطع مثال عن التوظيف الديني المتحيز للدراسات المستقبلية نظرية التصادم بين الحضارات **لصموئيل هانتجتون** الذي نشر مقالته صدام الحضارات في مجلة

الشؤون الخارجية الأمريكية في 1993 وهي مجلة وثيقة الصلة بالدراسات المستقبلية في الولايات المتحدة الأمريكية.

ذاع صيت الأطروحة وصاحبها الذي آلت إليه مسؤولية إدارة معهد جن أوليين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد الشهيرة وقد كان لتضلعه في الدراسات الإستراتيجية والمستقبلية وتفانيه في هذا النوع من التخصص وتألقه بصفة خاصة أن أسندت إليه مابين عامي 1977 و 1978 رئاسة قسم التحليل والاستشراف بمجلس الأمن القومي الأمريكي. 11

وقد أضفت سمعة صموئيل العالمية وتاريخه العلمي كواحد من الإستراتيجيين أهمية مضاعفة على أطروحته ذات العنوان الاستفهامي هل هو صراع بين الحضارات؟ تقوم أطروحة التصادم بين الحضارات على أن الصدام بين الحضارات هو الذي سيهمن على السياسات الدولية ويشكل الحلقة الأخيرة من تطور الصراع في العالم الجديد، باعتبار أن الانقسامات الكبرى بين بني البشر وبؤر التوتر سوف تكون ثقافية في الأساس.

يقول صموئيل هانتجتون: "والفرض الذي أقدمه هو أن المصدر الأساسي للنزاع في هذا العالم الجديد لن يكون مصدرا إيديولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأول ، فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدرا ثقافيا، وستظل الدول الأمم هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية، لكن المنازعات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين أمم مجموعات لها حضارات مختلفة وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسة الدولية. ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل، وسيكون النزاع بين الحضارات هو المرحلة الأخيرة في تطور النزاع في العالم الحديث". 12

ويعتقد صاموئيل هانتجتون في دراسته المستقبلية أن الهوية الثقافية ستكسب مزيداً من الأهمية في المستقبل وسيتشكل العالم بقدر كبير نتيجة للتفاعل بين سبع أو ثمان حضارات فاعلة، وستحدث أهم المنازعات في المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التي تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى. 13

ولتعزيز فكرته هذه، وزيادة في تدعيمها يورد هانتجتون مجموعة من العوامل، من أهمها:

- شكلت الفروق بين الحضارات الخطوط الفاصلة الجوهرية، ويأتي الدين في طليعة هذه الفروق، وتاريخ الشعوب شاهد على أن هذه الفروق زجت بالحضارات في أطول المنازعات وأشدّها ضراوة.
- بعد أن أضحى العالم صغيراً، باتت التفاعلات بين شعوب الحضارات في التفاهم وأسفرت هذه التفاعلات على ارتفاع درجة وعي الحضارات بنفسها وإدراكها للفروق بين الحضارات.
- تهدف الإجراءات الاقتصادية الحديثة وسياسات التغيير الاجتماعي الجارية إلى فصل الشعوب عن هويات محلية، علاوة على إضعاف الدولة القطرية، وفي جزء كبير من العالم تحرك الدين ليملاً هذا الفراغ على شكل حركات عرفت بالحركات الأصولية. فإحياء الدين يوفر أساساً للهوية والتزاماً يتجاوز الحدود القطرية، ويوحد الثقافات.
- يتفاهم الوعي الحضاري جراء الدور المزدوج الذي يقوم بالغرب، فمن جهة يمتلك الغرب ناصية القوة والنفوذ في الوقت نفسه، وربما نتيجة لهذا الواقع تلوح في الأفق صيحات تدعو إلى العودة إلى جذورها الحضارية الخاصة.

فلا غرو أن نجد في الوقت الراهن غربا في أوج قوته، بات يجابه في الوقت نفسه أطرافا غير غربية يحدوها الأمل في تشكيل العالم وفق أساليب غير غربية، لا تنقصها الإرادة والإمكانات لتحقيق ذلك. 14

وانطلاقا من افتراضه أن الاتجاه الجديد للسياسة العالمية في المستقبل سيمثل في الصراع بين الغرب وبقية العالم ، وردود فعل الحضارات غير الغربية على السلطة والقيم الغربية.

يتوقع صموئيل أن بؤرة مركزية للصراع في المستقبل سوف تكون بؤرة صراع بين الغرب من جهة وبين عدد من الدول الكونفوشيوسية والإسلامية من الجهة المقابلة.

ويخلص المفكر الأمريكي إلى أن مصلحة الغرب على المدى القصير تكمن في العمل على تحقيق قدر أكبر من التعاون والتعايش داخل حضارته، خاصة بين العنصرين الأوروبي والأمريكي الشمالي، وإدماج مجتمعات قريبة لثقافات الغرب في كل من أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية وتوطيد علاقات التعاون مع كل من روسيا واليابان ومنع تصاعد النزاعات المحلية داخل الحضارات إلى حروب كبيرة، والحد من توسع القوة العسكرية للدول الإسلامية و الكونفوشيوسية واستغلال الخلافات والنزاعات بين هذه الدول فيما بينها، وتقديم المساعدات للمتعاظمين مع القيم والمصالح الغربية في الحضارات الأخرى، وتقوية المؤسسات الدولية التي تعكس المصالح والقيم المشروعة للغرب.

أما على المدى الطويل ، فيشدد على أهمية قيام الغرب باحتواء الحضارات غير الغربية الحديثة، التي باتت قوتها قريبة من قوته، وإن كانت قيمها و مصالحها تختلف

بصورة كبيرة عن قيمه ومصالحه، وهو ما يقتضي من الغرب أن يحتفظ بقوته الاقتصادية والعسكرية الضرورية لحماية مصالحه بالنسبة لهذه الحضارات. وعليه أن يكتسب فهما أعمق للتفاعلات الدينية والفلسفية الأساسية التي تحدد البنية التحتية التي تقف عليها الحضارات ، والطريقة التي ترى بها الشعوب هذه الحضارات مصالحها.15

إن المتأمل لأطروحة صدام الحضارات يلمس تلك الفكرة الباطنية التي يثبها هانتجتون في نظريته والتي تمليها نظريته الصهيونية ، وهي أن الأمر سينتهي حتما بصراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية.

والمقال لا يطرح هذه الفكرة مباشرة بل يبدأ بإقرار مبدأ النهوض الحضاري في شتى بقاع العالم ، حيث يزداد الوعي بالذات لدى كل مجموعة بشرية تجمعها عناصر موضوعية مشتركة، ومع تنامي هذا الوعي تنشأ عملية التمايز عن الآخر، وربما الاختلاف معه، نتيجة وجود فروق ليس فقط حقيقية، وإنما أساسية لا يمكن تجاهلها.

وبعد استعراضه للأسباب التي تدفعه لتوقع مرحلة من صراع الحضارات يتحول مقال هانتجتون إلى بحث معني الغربي الإسلامي الذي يراه النتيجة النهائية لما يسميه بالاصطفاء الحضاري، الذي أفصح عن نفسه في حرب الخليج. شأنه في ذلك شأن جميع المقالات المتشنجة التي لا هم لها إلا إثارة ما يعرف بالإحياء الإسلامي وتهديده للغرب و حضارته. ومع أنه يرى إمكانية احتواء كثير من البلدان المنتمية إلى حضارات غير غربية ، وراغبة في الانضمام إلى الحضارة الغربية مثل المكسيك وكثير من البلدان اللاتينية. فإنه بالمقابل يرى أن البلدان الإسلامية التي عبرت عن رفضها للحضارة الغربية، واستغلت في رأيه آليات الديمقراطية الغربية للتعبير عن رفضها

للغرب يصعب أن تندمج مع حضارته، ولكنها بإمكانها أن تتعاون مع حضارات أخرى رافضة للغرب، مثل الكونفوشيوسية التي تخير لها نموذجين هما الصين وكوريا الشمالية.¹⁶

إن هانتجتون ينطلق من فكرة جوهرية أن الصراع سيكون حلقة تمر بها الحضارات في قمة نموها حتى تصل إلى درجة التعايش الذي يدرك خلالها كل طرف أن العالم لا يمكن أن يكون حضارة واحدة متجانسة ، وإنما هو مكان التقاء عدة حضارات، وإن كان هانتجتون لم يعن بتأكيد أن هذه النهاية ستسحب أيضا على الصراع الغربي الإسلامي، بقدر ما عني بتخصيص الجانب الأكبر من المقالة للمرحلة الصراعية بين الغرب والإسلام.

وهنا يتضح بأن الفكرة الباطنية التي ييئها هانتجتون أن الأمر سينتهي بصراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية، كما كان الحال حوالي 1300 سنة.

لسنا هنا في حاجة لرد فكرة التصادم التي يعمل هانتجتون لترسيخها في الفكر الغربي، فالباحثون المنصفون الغربيون حذروا من مخاطر هذه الفكرة عن المواجهة الإسلامية للغرب ، فهذه الفكرة ليست خاطئة من الناحية التاريخية فحسين وإنما هي خطيرة كذلك لأنها تعطي صورة وهمية للعالم الإسلامي بتضخيم المخاوف النفسية والعنصرية . فالمسلمون كما يرى كارلسون انغمار مدير التخطيط السياسي في وزارة الخارجية السويدية، ليسوا الآن في موقع قوة، لا في طاجيكستان وأذربيجان ولا في فلسطين والبوسنة، والإسلام والمسيحية تعايشا سويا خلال 1400 سنة، كجارين دوما وكمتنافسين تقريبا ، وكعدوين في مرات كثيرة، غير أن نزاعهما المبررة كانت ناجمة عن أصولهما المشتركة ونقاط التشابه بينهما في الأساس.¹⁷

والثقافة الإسلامية كما يضيف **كارلسون** ليست غريبة عن الغرب إلى الحد الذي تحاول أن تصورها فيه الأفكار المسبقة، ولا سيما أن الحضور الإسلامي في القارة الأوروبية قد أدى إلى تكامل مثمر بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وعلى نهضة رائدة في شتى المجالات من علم وفلسفة وثقافة وفن، وفي نهاية العصور الوسطى كما يضيف **كارلسون** شكل الإسلام و اليهودية عنصرين مكونين لأوروبا، واليوم يوجد في أوروبا أكثر من عشرة ملايين مسلم، وتشير التقديرات أن الهجرة المستمرة سترفع هذا العدد باستمرار ، وبعد خمس وعشرين سنة قد يكون في أوروبا ما بين 25 إلى 60 مليون مسلم.

وبغض النظر عن دقة هذه المعلومات فإنه لم يعد في الإمكان تعدد الاتجاه الأوروبي بدون وجود مكون إسلامي أخضر له. 18
ولكن لنا أن نتساءل لماذا الدعاية لهذه الأطروحة في هذا الوقت بالذات؟ وما هي الدوائر التي لها مصلحة من مثل هذه الأفكار؟

يعتقد **عابد الجابري** أن مهمة كاتب الأطروحة تتجلى في الرد بصورة غير مباشرة وسيكون بصورة مباشرة فيما بعد على فكرة نهاية التاريخ **لفوكوياما** وهي الفكرة التي تؤكد تفوق الليبرالية بصورة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي والهيبار الشيوعية. إن تقرير مبدأ النصر الذي تحقق بصورة نهائية للبرالية يعني بالضرورة أنه لن يكون هناك في المستقبل خصوم للغرب الذي تقوده أمريكا ، وهذا بدوره يعمل على تجميد وإنهاء المساعدات التي تقدم على إسرائيل بصفة خاصة، لأنه سيغدو من غير الممكن إقناع الناحب الأمريكي و الكونجرس الأمريكي الذي يمثله، بضرورة الموافقة على ميزانية وزارة الدفاع المرتفع جدا ، وما تحويه من مساعدات باهظة لإسرائيل خاصة.

إن هذه النتيجة الحقيقية كما يرى الجابري هي التي حركت هانتجتون ،أو حركت من طلب ذلك ليتصدى بسرعة وعنفة لفكرة نهاية التاريخ.19 . وهنا نلمس التوظيف غير البريء لترعة دينية مستبطنة في وضع إستراتيجية صدام بين الحضارات .

تبعاً لذلك فإننا نلح على تجاوز النزعات الدينية المتحيزة والتي من شأنها أن تضطلع بدور في غاية الخطورة من حيث محاولتها لتطويع الدراسات المستقبلية لخدمة أهداف مبيتة والزج بها في تبعية مطلقة لتحقيق أغراض بعيدة عن الفكر العلمي المحايد.

إننا نعتقد بأن لا ينبغي توظيف الدين غير البريء في الدراسات المستقبلية بحيث تنحاز هذه الدراسات لأطر عنصرية خاصة من شأنها أن تأزم الوضع وتأجج الصراع بين بني البشر فالدين له وظائف أسمى تبرؤه من هذه الأدوار والتي جاء ليؤكددها من أهمها:

– **المهدف الاجتماعي:** يمثل الدين مستودعاً للقيم الأخلاقية، فالدين برأي كانط يسعى إلى إسداء خدمة نفعية لا يقدر عليه غيره برعايته لأهم مصالح الإنسانية متمثلة في وحدة مشتركة للمنظومة الأخلاقية يتلاقى حولها بنو البشر عبر عنها كانت بالقانون الأخلاقي العالمي.

ومع أهمية الأخلاق في المنظومة الدينية ،لدرجة أضحت بعض الديانات منظومات أخلاقية خالصة تكاد تخلو من إشارات عقائدية كالبودية فأصبحت عند بعض الباحثين مذهباً أخلاقياً.ولكن هذا لا يعني الادعاء بأن الأخلاق هي جوهر الدين.

لقد شجع المسيحيون الاتجاه الأخلاقي للدين فرسموا للمسيحية أسمى صيغة خلقية، ولكن يؤخذ على هذا الرأي استبعاده للعناصر النظرية و العاطفية في الحياة الأخلاقية أي أنهم يقصون أجزاء من الدين.

إن التأكيد على الواجب الأخلاقي وحده قد ينفي الشعور بالواجب نحو الله و الاستغناء عنه. فالتعاليم الأخلاقية الإسلامية ترنو إلى تحقيق سعادة الإنسان بقدر ما ترنو إلى رعاية مصالح الآخرين، وهي كما يذكر مالك بن نبي تدفع الفرد على أن ينشد دائما ثواب الله قبل أن يهدف إلى تحقيق فائدة بعينها.²⁰

فالدين ظاهرة سوسيولوجية تضطلع بأدوار عديدة ليست أخلاقية فحسب بل تمتد إلى أصعدة سياسية و اقتصادية، وعلى الباحث أن يدرس هذه الأدوار بذاتها فالمطلوب علميا هو درس ما يحدث في المجتمع ، وتحديد نسبة الحدث الديني وقوته، وتبيان أثره و تأثيره، وخصوصا تأثيره بالمجتمع الذي يعتنقه وهذا موضوع علم الاجتماع الديني.

- الهدف نفسي وعاطفي: يضطلع الدين بوظيفة سامية في تلبية حاجات نفسية وعاطفية، فالطقوس الدينية والشعائر التعبدية التي يقوم بها المتدين لها أبلغ التأثير في تلبية هذه الحاجات، وفي هذا الإطار تتبلور المواضيع الكبرى للدين كالعبادات، و الطقوس الدينية. تولى الاهتمام بهذا الهدف بشكل خاص علم النفس الديني الغرب.²¹

-فكري عرفاني: يسعى المتدين إلى التطلع اليقين البرهاني و الساكن النفس إلى العقد الإيماني في اعتلاق العروة الوثقى فيسمو سره على القدس لينال من روح

الاتصال.²²

ومن أشهر من عبر عن هذا الهدف الذي يرجى من الدين **هيجل** الذي عرف الدين بقوله إنه المعرفة التي تكتسبها النفس المحدودة لجوهرها كروح مطلق. ويدلل **هيجل** على فكرته على أساس أن كل الديانات إنما تتطلع إلى تحقيق اتحاد الألوهية بالإنسانية، وبناء على ذلك فإن تنوع الديانات بنظر **هيجل** كأنها مرت بأطوار تدريجية لتحقيق هذه الوحدة حتى نصل إلى المسيحية التي تجسد هذه الوحدة فهي قمة البناء. 23.

والمؤكد أن الدين في تاريخه الطويل ظل بجانب الإنسان يمدّه بإجابات على الأسئلة ليشبع هممه المحيرة والمتعلقة أساسا بنفسه وبالعالم ، يتضح ذلك جليا في الديانات السماوية الكبرى. لقد أجاب الدين على أسئلة كثيرة طالما شغلت الإنسان و أقضت مضجعه، ومع سذاجة الإجابات في بعض الديانات البدائية لا تدعو مطلقا إلى الاستخفاف بالدين .

مراجع البحث

- 1- ميشيل سالون، المستقبل، ترجمة وديع حنا. القاهرة: مكتبة مد بولي ص 27.
- 2- المرجع نفسه، ص 29.
- 3- ألفين توفلر، صدمة المستقبل المتغيرات في عالم الغد. ترجمة: محمد علي ناصف، القاهرة: مطبعة النهضة ، ط2 1990، ص 29.
- 4- المرجع نفسه، ص 13.
- 5- المرجع نفسه، ص 14.
- 6- المرجع نفسه، ص 2، 3.
- 7- ميشيل سالون، المستقبل، ص 155.
- 8- المرجع نفسه، ص 151.
- 9- المرجع نفسه، ص 151، 152.

- 10- يوسف حسين، البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني سلسلة أطروحات الدكتوراه. مركز الوحدة العربية .لبنان، ط 1995 ص 6-7.
- 11- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، يونيو 1997 ص 93.
- 12- مكي واصف، الغرب والإسلام على حاشيته صموئيل هانتجتون، هل هو صدام بين الحضارات .القاهرة: دار جهاد للنشر والتوزيع، ط 1، 1981، ص 175.
- 13- المرجع نفسه، ص 176.
- 14- المرجع نفسه، ص 178-179.
- 15- المرجع نفسه، ص 198-202.
- 16- المرجع نفسه، ص 198-200.
- 17- ماهر الشريف، أطروحة صدام الحضارات ونقادها مجلة النهج .سوريا، عدد 40، سنة 1995، ص 202.
- 18- المرجع نفسه، ص 203.
- 19- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 94-95.
- 20- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر)، ص 248.
- 21- يوسف شلحت ، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني بيروت: دار الفارابي ط 1، 2003، ص 13-14.
- 22- ابن سينا ، الإشارات، (المطبعة الخيرية، ط 1، 1325هـ) ج 2، ص 104.
- 23- هانس كينغ، مشروع أخلاقي عالمي، ترجمة جوزيف معلوف وأو رسولا عساف، لبنان ك المكتبة البولسية ط 1998، ص 1، 229.